

مجالات الصحة النفسية بالمدرسة^(١)

للكنورة سمية أحمد فهمي

أستاذة علم النفس المساعدة

مفهوم الصحة النفسية :

الصحة النفسية فرع من فروع علم النفس التطبيقي. فينما يدرس علم النفس سلوك الكائنات الحية في تفاعلها مع البيئة ، ومصادر هذا السلوك وعواقبه ، تهتم الصحة النفسية بتقييم عواقب السلوك من حيث كونها مرضية أو غير مرضية للشخص . وتكون عواقب السلوك مرضية أو غير مرضية للشخص وفقا لنوع الأهداف التي يحققها أو يقصر عن تحقيقها .

وإذا كان من المسلم به أن الناس يختلفون فيما بينهم ، فمن المسلم به أيضا أن البشر يشتركون في بعض المميزات النفسية العامة. يترتب على ذلك أن على الرغم من أنه قد يكون لكل شخص أهداف خاصة في الحياة ، إلا أن الباحثين تمكنوا من اكتشاف أهداف عامة أساسية للحياة البشرية — أهداف ذات قيمة في حد ذاتها ، يجب تحقيقها الرضا والسعادة للبشر .

فما هي هذه الأهداف العامة التي اكتشفها علماء الصحة النفسية ؟ الغرض الأساسي من الحياة من وجهة نظر الصحة النفسية هو أن يصبح الفرد شخصية ناضجة . وبناء شخصية ناضجة عملية تطور خلاق يقتضى تعبئة جميع امكانيات الانسان ، ولا بد من أن تختلف من شخص لآخر ، لأن كل واحد منا شخصية فريدة لها تاريخ خاص بها . ومع ذلك فهناك مبادئ أساسية يمكن أن يهتدى بها الشخص الذي يسعى الى النضج النفسى ، ونلخصها فيما يلي :

الشخصية الناضجة :

١ — تحقق الاستقلال النسبى والاعتماد على النفس .

(١) بحث قدم الى الحلقة الدراسية لاسس التربية في العالم العربى — يونيو

سنة ١٩٦١

- ٢ — تكون علاقات اجتماعية طيبة وتستمتع بها .
 - ٣ — تعرف نفسها بأمانة وتقدرها حق قدرها .
 - ٤ — مستعدة لمواجهة الحقائق الواقعية .
 - ٥ — تعنى عناية متزنة بكل ناحية من نواحي طبيعتها فتنهم بالعمل واللعب والحب والعبادة وغيرها .
 - ٦ — تنظم اتجاهاتها المتنوعة المتضاربة في وحدة متكاملة متسقة .
 - ٧ — تبنى لنفسها مقياسا من القيم والمثل العليا وترجمه الى خطة عملية تعينها على مواجهة مشاكلها ، والتعيز بين السبل المختلفة لحلها ، والتبصر في عواقب الأمور ، وتقييم النتائج .
- هذه هي الأهداف الأساسية التي يرى علماء الصحة النفسية أنها ترضى الانسان وتسعده ، اذا سعى الى تحقيقها في حدود النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه . وهذا ما نسميه في علم الصحة النفسية بالتكيف أو الملاءمة .

توضيح معنى التكيف :

يتضمن التكيف تفاعلا مستمرا بين الشخص وبيئته ، فللشخص حاجات وللبيئة مطالب ، وكل منهما يفرض مطالبه على الآخر . ويتم التكيف أحيانا عندما يرضخ الشخص ويتقبل الظروف البيئية التي لا يقوى على تغييرها . ويتحقق التكيف أحيانا أخرى عندما يعبئ الشخص امكانياته البناءة فيعدل الظروف البيئية التي تقف في سبيل أهدافه . وفي أغلب الأحيان يكون التكيف حلا وسطا بين هذين الطرفين . وينشأ سوء التكيف عندما يفشل الشخص في تحقيق مثل هذا الحل الوسط فتسوء صحته النفسية .

فالصحة النفسية السوية اذن تمثل القدرة على التكيف ، قدرة الشخص على التوفيق بين رغباته وأهدافه من جهة ، وبين الحقائق المنادية والاجتماعية التي يعيش في وسطها من جهة أخرى . فاما أن يلائم بينه وبين المطالب التي يفرضها عليه الواقع ، واما أن يهتدى الى طرق يعدل بها هذه الوقائع بحيث تصبح مستساغة اليه .

فإذا أردنا أن نعنى بصحتنا النفسية علينا أن نتوضح أولاً رغباتنا وأهدافنا في الحياة ، وثانياً المطالب التي يفرضها علينا الواقع . أما أهدافنا العامة فلقد أوجزتها في النقاط السبع السابقة . واما بخصوص الشروط التي يفرضها علينا الواقع فيمكن تلخيصها كالآتي :

الحياة الواقعية تتطلب منا أولاً التغير والتطور . فالتكيف لا ينتهي أبداً ، بل يجب أن يستمر من يوم لآخر ومن مرحلة نمو إلى أخرى في حياة الشخص . فكل خطوة في النمو تتطلب تكيفاً جديداً ، ولا يمكن التثبيت بأساليب التكيف القديمة دون تغييرها وتطويرها إلا على حساب صحتنا النفسية .

ثانياً : تفرض علينا الحياة الواقعية مطلباً آخر مضاداً للمطلب الأول ، ألا وهو الثبات والمثابرة ، ومواصلة الكد والجهد في أعمالنا لكي نحقق النجاح فيها . والتكيف يتطلب توازناً سعيداً بين التطور والمثابرة . ولعل أحسن تعبير عن هذا التوازن السعيد هو وصف التكيف بأنه القوة المرنة . فالأشخاص الجامدون هم الذين يفتقرون إلى عنصر المرونة . أما الذين لا يحتملون الأفعال الكادحة ولا يتجددون أمام الصعاب فهم الضعفاء . والشخص الذي يتمتع بصحة نفسية سوية هو الذي يستطيع أن يسلك بمرونة أو بقوة وفقاً للظروف . ومواجهة التطور بالنسبة للأطفال لا تقل صعوبة عن تعلم المثابرة .

المطالب التي تفرضها المدرسة على الطفل :

ينتقل طفل السادسة من مجتمع الأسرة إلى مجتمع المدرسة ، ولا شك في أن الاختلاف الكبير بين المجتمعين يتطلب من الطفل أشكالاً جديدة من التكيف . فلنتبصر إذن فيما تتطلبه الحياة المدرسية من الطفل :

١ - التكيف الدراسي : تتطلب المدرسة أن يتعلم الطفل القراءة والكتابة والحساب والعلوم وغيرها من فروع الفنون والمعرفة ، وأن يؤدي الواجبات التي يعطيها المدرس ، وأن يصل إلى مستوى معين من التقدم في نهاية كل عام ، وأن ينجح في الامتحان ، الخ .

٢ - التكيف الاجتماعي : الحياة المدرسية تتطلب من الطفل أن يندمج في مجموعة أكبر من مجموعة الأسرة ، مجموعة منظمة تنظيمياً يخالف تنظيم الأسرة . عليه أن يكون الأصدقاء ، وأن يستعد لهجمات المعتدين ، وأن يقيم لنفسه مركزاً

اجتماعيا مرضيا بين زملائه. لم يعد الطفل محور الانتباه والرعاية كما كان في أسرته، بل عليه أن يشارك زملاءه انتباه المدرس ورعايته ، وأن يتعاون معهم في العمل واللعب . سوف يتعرض لحكم الزملاء والمدرسين عليه مما يؤثر على تقديره لذاته تأثيرا عميقا .

٣ - التكيف الخلقى : سوف يكتشف الطفل بعض التعارض بين قيم المنزل وقيم المدرسة ، مما يحتم عليه التوفيق بينهما إذا أراد أن ينعم براحة البال . فقد ينظر الوالدان اليه نظرة اعجاب وتقدير ، وقد يعتبره المدرس غيبا طائشا . أو قد يتحير في أمره لأن بعض التلاميذ يمارسون أفعالا هي من المحرمات في أسرته ، أو لأن بعضهم يحتالون للتوصل من مسؤولياتهم ، دون أن يكشف أمرهم أحد ، فيتساءل عن قيمة الأمانة . ولا شك في أن التلميذ يواجه تعقيدات خلقية كثيرة في الحياة المدرسية ، تعقيدات تفرض عليه وطأة الموازنة والاختيار ، وضرورة التكيف لمواقف كل قرار يتخذه .

وهكذا نلاحظ - لو دققنا النظر - أن ما يتطلبه المجتمع المدرسي من التلميذ لا يخرج عن المطالبين للذين سبق أن أوجزناهما في : التطور من جهة والمثابرة من جهة ثانية . فالمجتمع المدرسي يتطلب من التلميذ أن ينمو ويتطور ، كما يتطلب منه تعلم الثبات والمثابرة .

مطالب التلميذ من المجتمع المدرسي :

يجدر بنا أن نتذكر دائما أن التكيف في المدرسة يتضمن طرفين : المجتمع المدرسي من جهة وشخصية الطفل النامية من جهة أخرى . وإذا كان للمجتمع المدرسي مطالبه فإن لشخصية الطفل طبيعتها ومميزاتها . وكما يجب مراعاة نظام المجتمع المدرسي ، يجب كذلك مراعاة قوانين نمو شخصية الطفل ، وطبيعة حاجاته ودوافعه وقدراته ، ونوع الخبرات التي تأثر بها قبل دخوله المدرسة . ولا ينعم التلميذ بصحة نفسية سوية الا اذا أرضيت مقومات شخصيته وتحققت في نفس الوقت مطالب المجتمع المدرسي . وينشأ سوء التكيف عند ما تتعارض نظم المدرسة مع طبيعة قوانين النمو النفسى ، فيعجز الطفل عن مواجهة هذه النظم بطريقة تتلاءم مع طبيعة نمو شخصيته .

فاذا أردنا بناء المجتمع المدرسي بناء يكفل تحقيق مبادئ الصحة النفسية السوية للتلميذ ، وجب علينا أولا أن نتعرف على طبيعة النمو النفسى ، وأن نفهم

كيف تتكون شخصية الطفل وكيف تتكامل وتنضج . ثم تتجه بعد ذلك ، ونحن مزودين بالمعرفة والفهم ، الى بناء المدرسة التي نرعى ولا نتخنى ، توجه ولا ترغم ، تسعد ولا تشقى .

ولا يتسع المجال هنا لوصف نمو شخصية الطفل منذ الولادة حتى مرحله دخوله المدرسة . وسأكتفى بالقاء الضوء على أهم العوامل التي تشكل نمو شخصية الطفل وكيف يظهر أثرها في تكيفه المدرسي .

العوامل التي تشكل نمو شخصية الطفل :

سوف أتناول بالدراسة النواحي الآتية :

- ١ — موقف الوالدين وخبرات الطفل في البيئة المنزلية قبل دخوله المدرسة .
- ٢ — خواص الطفل الشخصية عند دخوله المدرسة : بنيته ، سماته المزاجية ، قدراته العقلية ، استعداداته الخاصة الخ .
- ٣ — دور العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي في نمو الشخصية .
- ٤ — تكوين الضمير والمثل العليا التي توجه السلوك وتضبطه .

أما منهجى في العرض فيتلخص في وصف النمو الطبيعي في كل ناحية ، ثم كيف يحدث التكيف السليم ، وكيف ينشأ سوء التكيف ، وكيف يؤثر هذا وذلك على تكيف التلميذ في المدرسة .

١ — موقف الوالدين وخبرات الطفولة قبل دخول المدرسة :

ان طفل السادسة الذى يواجه المدرسة لأول مرة ، يحمل معه تاريخا خاصا حافلا بالأحداث . ولا نبالغ اذا قلنا ان الاتجاهات الأساسية لشخصية الطفل تكون قد وضعت خلال السنوات الست التي عاشها بين أسرته . ولعل المدرسة النابهة الحنون تستطيع أن تفهم بعض هذه الاتجاهات ، اذا هي لاحظت سلوك الطفل ملاحظة دقيقة خلال الأسابيع الأولى من حياته المدرسية .

يولد الطفل مزودا بذخيرة من الحاجات والدوافع الفطرية التي تحفزه الى النشاط من أجل اشباعها . كذلك هو مزود بقدرة واسعة على التعلم . هذان العاملان — الدوافع والقدرة على التعلم — وتفاعلهما مع البيئة المحيطة ، تشكل نقطة البداية في نموه النفسى . ويحتل الوالدان مركزا رئيسيا في بيئة الطفل ،

فمعاملتها له وموقفها منه من أهم العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيته . ويتجلى ذلك بالنسبة لبعض الميول الفطرية أكثر من غيرها ، نظرا لأنها بطبيعتها تتصادم بالضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل في الأسرة، من هذه الميول : (١) ميل الطفل الى الاعتماد على الغير . (٢) وميله الى الفردية المطلقة والتحرر من القيود ، (٣) وميوله العدوانية . وسوف نتناول كلا منها وتبصر في مشاكل التكيف التي قد تنشأ من عدم نموها نموا صحيحا ، وعدم انسجامها في وحدة الشخصية المتكاملة .

اعتماد الطفل : يعتمد الرضيع اعتمادا يكاد يكون تاما على الآخرين لتفريغ متاعبه وارضاء حاجاته . وبإطراد نموه يصبح أقل عجزا ، ويتطلب منه المجتمع مثلا في شخص الأم ، أن يضطلع بنصيب أكبر من النشاط لاشباع احتياجاته . وكلما تفتحت قدراته بالتدرج نلاحظ أن اتجاهه نحو خدمة نفسه يحل محل اعتماده على الآخرين .

وبينا توجد دوافع كثيرة تحث الفرد على التحول عن اعتماده الطفلي ، فإن العملية مع ذلك ليست يسيرة التنفيذ . ذلك أنها تعنى الانتقال من طريقة سهلة في اشباع الرغبات الى طريقة أكثر صعوبة . ولكي يتعلم الطفل الطريق الأصعب لا بد أن يكون مجزيا ، بل من الضروري أن يكون الجزء الذي يحصل عليه الطفل من الاستقلال النسبي أكبر من ذلك الذي يحصل عليه لو بقي معتمدا على الآخرين . ومن حسن الحظ بالنسبة لنمو الطفل ، فإن خدمة الذات مجزية ومرضية في حد ذاتها . فالطفل يفرح بقدرته اذا استطاع أن يقضى بعض حاجاته . ولكن الاستقلال يتضمن بعض الأعمال الصعبة التي يقتضى تعلمها حافزا اضافيا مثل مدح الوالدين الجنونين للطفل وتشجيعهما له .

وينشأ سوء التكيف المدرسي عندما لا يكون الطفل قد نجح بدرجة معقولة في التطور من الاعتماد الى الاستقلال النسبي عند دخوله المدرسة . ويمكن أن نصف مثل هذا الطفل بأنه متشبث أو متعلق بميوله التوكلية الطفلية . وقد يرجع ذلك في بعض الحالات الى عوامل فطرية في تكوين الطفل تساعد على تثبيت الاعتماد على الغير . الا أن موقف الوالدين واتجاههما يلعب دورا هاما . فهناك اتجاهان متعارضان يمكن أن يسببا تثبيت الميول التوكلية : الأول هو

الافراط في تدليل الطفل والمبالغة في حمايته . والثاني هو اهمال الطفل والاعراض عنه والاحباط المبتسر لرغباته .

الطفل الذي يذهب الى المدرسة دون أن يكون قد تخلى بدرجة معقولة عن اعتياده الطفلي سوف يواجه صعوبات متعددة في تكيفه للسنجيم المدرسي . ففي لعبه يتوقع أن يسلبه الآخرون ، وفي عمله يريد أن يساعده المدرس في كل صغيرة وكبيرة ، وفي علاقاته الاجتماعية يتميز بالسلبية دون المشاركة والتبادل . كل هذا سوف يعرضه لحية الأمل والاحباط المستمر لأنه لا يعقل أن يستجيب الزملاء لميوله التواكليه ، كما أن التلميذ الذي يكون عالة على زملائه لا يحوز احترامهم وتقديرهم .

النزوع الى الفردية : بجانب الاعتماد المتناهي على الآخرين ، يكون الطفل في نفس الوقت ذاتيا الى أقصى الحدود ، متحررا من جميع القيود والأنظمة التي ينصاع لها البالغون . الا أن تقدمه في النمو يحتم عليه أن يتخلى تدريجيا عن انطلاقه وتلقائيته . فبدلا من أن يعمل ما يروقه ، في الوقت الذي يروقه ، وبالكيفية التي تروقه ، عليه أن يتعلم مراعاة الآخرين ، وأن يعمل وفقا لبرنامج معين بحيث تتسق أفعاله مع أفعال باقي أعضاء الأسرة . هذه هي عملية التكيف الاجتماعي ، ومعناها بالنسبة للطفل التخلى تدريجيا عن امتيازات الطفولة والتلقائية الفردية .

وتبدأ عملية التطبيع الاجتماعي خلال السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل ، فيبذل الوالدان الجهود المتواصلة لحملة على ذلك . ويستجيب الطفل للضغوط الواقعة عليه ، فيتعلم أن يفصل يديه وأمنائه ، وأن يرتب ممتلكاته ، وأن يشارك الأطفال الآخرين في لعبه ، وأن يتحكم في عمليات التبول والتبرز ، الخ .

ولكى يتطور الطفل تطورا سليما نحو التطبيع الاجتماعي ، يجب أن يراعى الوالدان توقيت مطالبهم توقيتا دقيقا بالنسبة لنمو الطفل ، بحيث يكون في وسعه القيام بما يطلب منه . فمن الحق أن تتوقع نجاح التدريب على الاخراج المعوى قبل أن ينضج الجهاز العصبي والعضلي النضج الكافي الذي يؤدي الى التحكم في العضلات الشرجية العاصرة . كذلك اذا تذكر الوالدان أن تعلم القواعد الاجتماعية عملية بطيئة ، لما ضجرا لأخطاء الطفل أو انتكاسه في أثناء تعلمه . الا أن العامل الجوهرى في اقبال الطفل على تعلم التطبيع الاجتماعي هو موقف

الوالدين منه . عندما يكافئان نجاحه بالاستحسان والاحترام الصادق ، ويفقدان عليه المحبة والحنان عن طيب خاطر في جميع الأوقات ، سوف يشعر الطفل أن الامتثال لرغباتها صفقة رابحة ، فينتقل القيود حبا في والديه . ومن هذه المرحلة الأولية في التكيف الاجتماعى سوف يتقدم في يسر الى المرحلة التالية حيث يدرك المنافع الحقيقية التى تعود عليه من ملاءمة سلوكه مع سلوك الآخرين ، ومن تعاونه معهم في شتى أنواع النشاط . فمثلا قد يرضى الطفل أن يشاركه الأطفال لعبة استجابة لنصيحة والديه ومن أجل جبه لها ، ولكنه سوف يكتشف عاجلا أو آجلا أن استمتاعه باللعب الجماعى يفوق استمتاعه باللعب الفردى .

وينشأ سوء التكيف عندما يتشبث الطفل بميوله الفردية المطلقة . وينتج ذلك من اتباع الوالدين لأحد اتجاهين : الأول هو الايغال في التسامح واللين حيث يفتقر الوالدان الى الحزم في طلب الانتظام من الطفل . وعواقب هذا التهاون هو تأجيل مسألة التطبع الاجتماعى ، ومضاعفة أعباء المدرسة ، حيث لا يمكن أن تتوقع من المدرسين والزملاء أن يتصفوا بالصبر الجميل ازاء طفل في السادسة أو السابعة يسلك سلوك طفل في الثالثة ، فيرفض التقيد بالقواعد الأولية للحياة المدرسية ، ويستهنر بحقوق الآخرين .

أما الاتجاه الثانى الذى يؤدى الى تشييت الميول الذاتية المطلقة فهو تدريب الطفل على التطبع الاجتماعى فى الأسرة بالاكراه والاجبار ، والتهديد والتكثير والاذلال . ان استخدام هذه الوسائل قد يضطر الطفل الى الانصياع لأوامر والديه ، ولكن طاعته مشوبة بالنقمة والحقد ، وكلما سنحت له الفرصة ارتد الى عمل ما يروقه بعيدا عن الأنظار . واذا تسمت منابع السلوك الاجتماعى والمشاركة بهذه الكيفية فى مراحل النمو الأولى ، تعذر على الطفل أن يتقدم الى المرحلة التى يكتشف فيها فائدة التعاون الاجتماعى وما فيه من خير للجميع .

مما تقدم يمكن أن تتصور المشاكل التى سوف يقع فيها التلميذ الذى لم يتدرب فى أسرته تدريبا سليما على الالتزام بقواعد الحياة الاجتماعية . مثل عذا التلميذ قد يرفض الذهاب الى المدرسة لأنهم العلل ، أو يترأخى فى تأدية واجباته المدرسية ، أو يتحدى نظام المدرسة . سوف يصعب عليه الاندماج مع الجماعة ، ويعجز عن الأخذ والعطاء فى نشاطه الاجتماعى ، ولا يستمتع بحقوق الزمالة والتزاماتها .

الميول العدوانية : توصلت الأبحاث العلمية المستفيضة الى أن العدوان هو استجابة للاجباط ، أى أن الاجباط هو الذى يستثير العدوان . ويتولد الاجباط من احداث خارجية تعوق الشخص من اشباع حاجاته ، أو تقيد حريته ونشاطه ، أو تؤذى جسده أو تجرح اعتباره لذاته . اذا أجبط الشخص لأى سبب من هذه الأسباب استولى عليه الغضب واندفع الى تدمير العوائق المحبطة . وان لم يستطع التعبير عن عدوانه وكراهيته بصورتها الطبيعية الصريحة ، فان هذه الميول تمتاز بقدرتها على تغيير أشكالها وأهدافها ، كما يمكن تأجيلها أو كبتها ، ثم لا تلبث أن تظهر من جديد فى صور مقنعة متعددة . فقد يتكرر اجباط الطفل فى الأسرة مثلا ، ثم يذهب الى المدرسة فيعصب غضبه هناك : يكسر الأشياء وي تلف الأدوات ويمزق الملابس ويهاجم زملاءه ويضربهم ، لا لشيء حدث فى المدرسة وانما بسبب الاجباط المزمع فى المنزل .

وسواء فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المجتمع الأكبر ، فان الميول العدوانية تزعجنا ، وآثارها المدمرة تحملنا على بذل جهود جبارة لتقييدها وقمعها وحماية المجتمع من اخطارها . الا أن مبادئ الصحة النفسية ترشدنا الى ضرورة تصريفها وتوجيهها . وذلك أولا بفهم طبيعتها فهما صحيحا . فكما سبق أن أشرت ، أن الطفل لا يغضب جبا فى الغضب ، ولا يدمر جبا فى التدمير ، بل هو يدمر لازالة العوائق المحبطة . وثانى ما ينبغى أن نفهمه هو أنه مادام الاجباط فى حياتنا محتم الوقوع ، فلا مناص اذن من استثارة العدوان والغضب . ولتوضيح ذلك تبصر فى حياة الطفل فى الأسرة حيث تتعقد العلاقات الانسانية باختلاط الحب بالكره . فالطفل يعتمد على والديه ويحبهم ، والوالدان يشبعان حاجاته ويفدقان عليه المحبة ، ولكنهما فى نفس الوقت يفرضان عليه مطالب تستثير غضبه وحفيظته . فالأم تمنح الطعام والحب والعناية ، ولكنها مسؤولة أيضا عن الفطام والتدريب على عمليات الاخراج وعلى التطبع الاجتماعى ، فضلا عن أنها تحب باقى أعضاء الأسرة وتعنى بهم مما يستثير غيرته وحقده . أخوته هم حلفاؤه وزملاء لعه ، ولكنهم فى نفس الوقت منافسوه فى علاقته بوالديه . على الطفل أن يجاهد للتغلب على هذه الانفعالات العدوانية التى تجتاحه . عليه أن يتعلم مهادة منافسيه ، وأن يكتشف المزايا التى يمكن أن يجنيها من التضامن معهم فى سلام ،

كيف اذن يحقق الطفل ذلك ؟ يتطلب التوجيه السليم للبول العدوانية التدريب على التنفيس المعتدل والضبط المرن . ونقصد بالتنفيس مواجهة الغضب والكراهية والتسليم بوجودها واخراجها الى النور . أما الضبط فمعناه التحكم في الثورة والهيجان بحيث يتسنى للشخص التفرغ لازالة أسباب الغضب بكفاية لا يمكن توفرها في حالة الهياج. هذا النظام المرن من عادات التنفيس والضبط، يمكن أن يكتسبه الطفل اذا نشأ في جو عائلي يتم بالتسامح والحزم في نفس الوقت . أما التسامح فمعناه التسليم بالاحباط المحتوم الذى يتتاب الطفل ، وتقبل مظاهر الغضب والكراهية التى ييديها أحيانا ومواجهتها بصراحة . وأما الحزم فيعنى الأخذ بيد الطفل لتدريبه على ضبط ثورته ، ومعاوته على تعلم الوسائل التى يزيل بها أسباب احباطه . فمثلا قد يشعر الطفل بالغيرة من أخيه الرضيع وقد يعبر عن عدائه بشتى الطرق . وللوالدين الحق في حماية الرضيع من الأذى ، ولكن لا يجوز لهما تأنيب الطفل لغيرته ، واشعاره بالذنب ، وتهديده بحرمانه من الحب اذا هو عبر عن غيرته . فقد يكبت الغيرة لينال رضى الوالدين ، ولكن الكبت يؤدى الى ظهور العداء في صور أخرى ملتوية مقنعة ، ويسبب للطفل مشاكل متنوعة مثل الفرع الليلي والعناد والتبول الليلي .. الخ .. ويمكن معاونة الطفل على التغلب على الغيرة بأن يقدر الوالدان موقف الطفل ، وأن يؤكدوا له بالقول والعمل ودون ملل أنها لا يزالان يحبانه ، وأن يهيئا له الفرص لكى يقوم بدور الأخ الأكبر في خدمة الرضيع ، وأن يمتدحاه على معاوته . وبالتدرج سوف يشعر الطفل أنه أقوى من الرضيع وأنه يستمتع باللعب معه .

ويرجع الفشل في تكييف الميول العدوانية اما الى تهاون الوالدين في ضبطها أو الى التشدد الصارم في قمعها . أما التهاون في وضع الحدود والضوابط فيؤدى الى تمادى الطفل في الغضب والتهور والاعتداء على الآخرين بلا حساب . ولا شك في أن مثل هذا الطفل يعجز عن الاندماج في المجتمع المدرسى . اما القمع المتناهى الذى يمنع الطفل من التعبير عن غيظه ، والذى يرغمه على الادعاء بأنه لا يشعر باتفعالات الكراهية وان الحب فقط هو الذى يسود في الأسرة — ان مثل هذا الكبت يقضى على الطفل بالتوتر والقلق والصراع وكلها تحول دون تكييفه . ذلك أن كبت الغضب يعنى عدم تصفية المضايقات كلما هبت ، يعنى تراكم الحقد والحفيظة وتثبيت الغيرة والتشكك ، وهذه جميعها سوف تسم علاقات الطفل

الوجدانية فيما بعد في المدرسة ، وتقف حائلا في سبيل المحبة والصدقة والتضامن بين الزملاء ، وتضع التلميذ في موقف المغلوب على أمره الذي لا يستطيع الدفاع عن حقوقه اذا اتهمت . فضلا عن ذلك فان غايات الغضب المضمّر قد يصل فجأة الى درجة الانفجار ، فتصدر عن التلميذ أعمال عدوانية فجائية عنيفة دون سبب ظاهر معقول . فان العدوان اذا لجم عنوة اما أن يحطم توازن الشخص نفسه ، أو أن ينطلق في أشكال خطيرة على الأشخاص والأشياء الخارجية .

٢ - خواص الطفل الشخصية وأثرها في تكيفه المدرسي

ان صفات الطفل الشخصية ، بنيته، سماته المزاجية، قدرته العقلية، استعداداته الخاصة ، هذه جميعها تؤثر تأثيرا عميقا على تكيفه في المدرسة . هي تؤثر على تقدير الآخرين له ، وبالتالي على تقديره لنفسه . وفي مستهل هذا البحث ذكرنا أن معرفة الشخص لنفسه معرفة صحيحة وتقديرها حق قدرها من الأهداف الأساسية للصحة النفسية السوية .

أهمية الزملاء : اذا كان التشجيع أو التثبيط الذي يمنحه الوالدان والأخوة لمجهودات الطفل ، يلعب دورا حيويا في تكوين اعتباره لذاته ، فان المجال الحاسم لاثبات الجدارة الشخصية هو مجال الزملاء في المدرسة . ينتقل الطفل من جو المنزل المتهافت الى المجتمع المدرسي المشبع بالتنافس ، ويتمين عليه عندئذ أن يخضع لمعايير جد مختلفة عن معايير الأسرة، وان هذا الجهاد قاس بالنسبة لكثير من الأطفال . عليهم أن يكونوا جديرين بالاحترام، عليهم أن يظهروا ما لديهم من أقدام وشجاعة ومهارة وتودد ، وأن يقارنوا أنفسهم مقارنة مباشرة بأطفال آخرين من نفس سنهم ، واذا فشلوا فجزأؤهم التحقير والسخرية والنبذ من المجموعة .

يتطلب المجتمع المدرسي من التلميذ اذن أن يثبت جدارته الشخصية ، والا فعليه أن يعاني آلام الشعور بالنقص . وهذا يثير مسألة الفروق الفردية في الجدارة .

الفروق الفردية في البنية الجسمية : تلعب الصفات الجسمية دورا مزدوجا في نمو الشخصية فهي أساس الجدارة المبنية على القوة والحيوية والجرأة الرياضية من جهة ، كما أنها موضوع الأحكام الاجتماعية المتعلقة بالجمال والجدانية الشخصية من جهة أخرى . ولا شك في أن هناك فروقا كبيرة بين الأفراد في الخواص

التركيبية للجسم ، ولا شك في أن الجسم ، سواء من جهة القوة والمهارة أو من ناحية الجمال والجاذبية ، يحتل مركزا هاما في نمو اعتبار الذات ولا سيما بين السنة الخامسة والسنة العشرين من العمر . وأى انحراف عن الشكل الطبيعي قد يولد شعورا حادا بالنقص ، اللهم الا اذا كان الى جانب الامتياز من حيث القدرة الرياضية عند البنين أو من حيث الجمال عند البنات .

ومن المشاكل التي تؤثر — ولو بطريقة مختلفة — على كلا البنين والبنات ، مسألة تقدم موعد النضوج الجنسي أو تأخره عن المتوسط . فالبنات اللاتي يسبقن زميلاتهن في النضوج الجنسي ، والأولاد الذين يتأخرون في النضوج الجنسي عن زملائهم المراهقين ، قد يصعب عليهم التكيف والاندماج في المجموعة ، فيتألمون لعدم تقبل الجماعة لهم .

الفروق الفردية في الصفات المزاجية : المقصود بالمزاج في علم النفس . (١) المميزات الوجدانية للفرد مثل قوة خبراته الانفعالية وعمقها وسرعة استثارتها وسرعة تغيرها . (٢) الأسس الفسيولوجية المفترضة لمثل هذه الخبرات مثل الفروق الفردية في افراز الغدد الصماء . (٣) الخواص الحركية للفرد مثل طاقة استجاباته الحركية وضبطها وحركاته التعبيرية .

والصفات المزاجية تبدو بوضوح بين تلاميذ المدارس فهناك الطفل النشط المتدفق الحيوية الذي يقدم على القيادة في جميع المشاريع . وهناك الطفل الودود الذي يقبل في يسر على الزمالة والصدقة . وهناك الطفل الخجول المشدود الحذر الحساس الذي يبقى على هامش الأحداث .

ومن المعروف أن هذه الميول المزاجية تتأثر الى حد بعيد بالخبرة الشخصية وموقف الوالدين بالنسبة للطفل ، ولكن العوامل الوراثية قد يكون لها وزنها أيضا في تكوينها . والأمر الذي يهنا في مجال الصحة النفسية هو أن تكيف الطفل في المدرسة سوف يتحقق بأسلوب يختلف باختلاف صفاته المزاجية . كما أن سوء التكيف سوف يحدث اذا أرغم التلميذ على اتباع أسلوب لا يتلاءم مع تكوينه المزاجي . كأن يجبر الطفل النشط المتدفق الحيوية على الجلوس الساعات الطوال منكبا على القراءة . أو أن يدفع الطفل الهادئ الحذر المتأمل الى أن يكون

بطلا في الألعاب الرياضية . ان الأعمال التي لا تستند الى بعض الميول الفطرية تجلب السأم والصراع . ومن حسن الحظ أن معظم الأمزجة تكون متوازنة التكوين مما يسهل مهمة التوجيه التربوي الى حد ما .

الفروق الفردية في القدرات العقلية : معظم تعاريف الذكاء العام تؤكد الصلة بينه وبين مفهوم التكيف الذي أوضحناه في مستهل هذا البحث . فالذكاء متصل بالقدرة على التعلم وحل المشكلات والحكم والتفكير . واذا تصورنا أن عملية التكيف تتضمن ناحيتين : احدها معرفية والاخرى دافعية وجدائية ، فيمكن اعتبار الذكاء الناحية المعرفية من عملية التكيف الشخصي .

من الواضح أن الذكاء العالي يساعد على التكيف ، وأن الذكاء المنخفض يعوقه . فاذا ثبت أن نسبة ذكاء طفل دون ٥٠ ، فالمرجح أنه يعجز عن التكيف للعالم المحيط به . ولا يستطيع مسابقة المدارس العادية ، ويحتاج الى الوصاية في مؤسسات خاصة مناسبة . أما الأطفال الذين تتراوح نسبة ذكائهم بين ٩٠،٥٠ فانهم يقسمون عادة الى ثلاث فئات وفقا لدرجة نقصهم العقلي . ومشاكل التكيف المدرسي بالنسبة لهؤلاء أكثر تعقيدا . ذلك أن نقصهم العقلي قد يفوت على الملاحظة السطحية ، وقد يتوقع المدرس منهم أن ينجزوا أعمالا هي في الواقع أعلى من مستوى قدرتهم العقلية . واذا تبين للمسئولين في آخر الأمر ان طاقتهم العقلية محدودة ، فانهم يبقون مع ذلك في الفصول العادية ، ويعيدون السنوات الدراسية ، ويوصمون بالبلادة وبأنهم ميئوس منهم . وهذا بالطبع يدعم شعورهم بالنقص ويعرقل تكيفهم ، فاما أن ينجحوا الى أعمال غير مشروعة ، واما أن يعزلوا ويفرقوا في أحلام اليقظة . ويمكن علاج هذا الموقف بانشاء فصول خاصة أو مدارس خاصة ، يراعى فيها أن تكون طريقة التدريس والمناهج ملائمة لعقليتهم المحدودة . كما ينبغي تدريبهم على أعمال بسيطة نافعة يكسبون بها عيشهم .

أما الذكاء العالي فهو بوجه عام يعين صاحبه على التكيف السوي ، ولكنه بالطبع لا يمنع سوء التكيف . ذلك أن النجاح في التكيف المدرسي لا يتطلب قدرا معقولا من الذكاء فحسب ، بل يتوقف أيضا على نوع الدوافع التي تحفز التلميذ نحو التعلم وموقفه من المجتمع المدرسي . الا أن اتجاه الأبحاث السائدة لا يزال يرجح النتائج التي وصل اليها ترمان من أبحاثه المستفيضه عام ١٩٢٥ ، وهي أن الأطفال الموهوبين (نسبة ذكاء أعلى من ١٤٠) يتفوقون على المتوسطين

من نفس العمر الزمني ، في صحتهم وبنيتهم وسعة اهتماماتهم وتكيفهم الاجتماعي وازترائهم الوجداني ، وانهم يحتفظون بهذه الميزات بتقدم عمرهم .

الآن قد تنشأ مشاكل خاصة بهؤلاء القلة النابغين الذين يبلغ تفوقهم العقلي درجة قصوى يستحيل معها اتصالهم بمن حولهم من الزملاء والمدرسين ، فيؤدي ذلك الى العزلة الاجتماعية كما بينت لينا هلنجورث في دراستها الواسعة لأطفال بلغت نسبة ذكائهم ١٨٠ فأكثر .

وبجانب الفروق التي وصفناها في الذكاء العام ، فان الفروق الفردية في الاستعدادات الخاصة والمواهب تحتل أهمية عملية كبيرة في تكامل الشخصية بوجه عام ، والتكيف التربوي والمهني بوجه خاص .

قد يتفوق التلميذ في الألعاب الرياضية، أو في الفنون التطبيقية، أو في التحصيل المدرسي ، أو في الموسيقى ، أو في الفنون الجميلة ، أو في سياسة الجماعات ، أو في الفكاهة والتسلية أو في غيرها . وأي نوع من أنواع القدرات الخاصة العالية يعتبر عونا كبيرا على التكيف السوي ، ويمكن استخدامه محورا لبناء اعتبار الذات وتنظيم ميول الشخصية وتوحيدها . ذلك أن الأعمال التي يجيدها التلميذ يؤديها وهو مغتبط سعيد بصرف النظر عما تجلبه من التقدير الاجتماعي . لاشك في أن السخرية قد تضيد الاستعداد الجيد وأن المدح قد ينمي الاستعداد المتوسط . ولكن السلوك الذي يستند الى موهبة يكون سلوكا مرضيا في حد ذاته .

وليس ضروريا أن يملك التلميذ استعدادا خارقا لكي ينمي على أساسه اهتماما معينا . يكفي أن تكون لديه قدرة متوسطة لكي يكون على أساسها اهتماما خاصا . وقد ينشأ الاهتمام بطرق لا تتصل بالقدرة ، كأن يقلد صديقا يعجب به ، أو يلتقط الفكرة من كتاب أو من أحد أفراد الأسرة . ومهما كان مصدر الاهتمام الأصلي فانه ينمو ويتشعب ويؤدي الى مجموعة من المهارات والكفايات التي تلعب دورا حيويا في توحيد الشخصية وتكاملها . أخذ مثلا ولدا يشرع في الاهتمام بالراديو ، فيشتري أجهزة ويصنعها ويتبادلها ، ويقضى وقته في فكها وتركيبها والتجريب عليها . ويحصل بذلك على معلومات كثيرة ومهارات متصلة بموضوع اهتمامه ، وينتهي الأمر باكتسابه كفاية حقيقية لا يمكن أن تفرق بينها وبين الاهتمام والميل . ومتى اكتشف التلميذ ان ممارسته هذا العمل يجلب

له الرضى النفسى والتقدير الاجتماعى ، أخذ يوجه شخصيته على هذا الأساس ،
وينتقى الجماعات والاصدقاء التى تشاركه اهتمامه التى يعتر برأيها وتقديرها .

مركب النقص :

ان مفهوم مركب النقص الذى اهتدى اليه آدلى مفهوم قيم ، ينبغى الا تتلفه
باستعماله دون تمييز كما يحدث فى بعض الصحف اليومية . كل شخص ناقص
فى نواح كثيرة ، ومعظم الناس لا يعبأون بذلك ، فاعتبارهم لذاتهم يتوقف على
قدر محدود فقط من الكفايات . ولا خير من العجز فى مجالات متعددة اذا كنا
نموض ذلك بالنجاح فى مجال واحد محدد . ذلك أن الصحة النفسية السعيدة
تتحقق بالحصول على بعض النجاح فى أى مجال من مجالات الحياة . والشخصية
المتكاملة التى تستمتع بقدر معقول من التقدير والاعتبار فى أية ناحية لا تصاب
بالشعور بالنقص .

أما اذا كان الشخص لا يترك مناسبة تمر دون أن يقارن نفسه بالآخرين ،
ودون أن يتحسر على عجزه عن القيام بما يتقنونه ، عندئذ فقط يوجد مبرر للقول
بأنه مصاب بمركب نقص . ان ما يقلق راحة هذا الشخص فى الواقع ، هو أنه لا يجد
فى نفسه قدرة كافية من أى نوع لكى يكون منها نواة لاعتبار ذاته ويرضى
نفسه . ويتكون مركب النقص عندما تعمق الصعوبات الذاتية أو الخارجية نمو
نمط من الجدارة والكفاية يكفل مساندة اعتبار الذات . ومن العوائق الخارجية
عدم تقدير المجتمع لنوع القدرات التى يتفوق فيها الشخص . أما العوائق الذاتية
فأهمها افتقار الشخص الى القدرة حقا . وبجانب هذه العوائق العامة توجد
مواقف خاصة قد تسد الطريق أمام نمو الكفاية واعتبار الذات على الرغم من توفر
القدرات الجيدة فى الطفل . ومن أمثلة ذلك أن يتنافس أخوان متقاربان فى السن
على التفوق فى نفس الميدان الذى يقدره الوالدان دون سواه .

وتستطيع المدرسة أن تساعد على منع تكوين مركب النقص عند التلاميذ
أو التخفيف منه ، باتخاذ جميع التدابير المناسبة لتشجيع نمو الاهتمامات والكفايات
والهوايات ، بحيث يتذوق كل تلميذ معنى النجاح فى ناحية من نواحي الأعمال ،
ويحظى بالتقدير الاجتماعى . كما ينبغى التقليل من أهمية المنافسة ، وأن تنظم
المنافسة بحيث يتنافس كل تلميذ مع نفسه ، وألا يكون الحافز لبذل المجهود هو
الرغبة فى هزيمة شخص آخر .

٢ - التفاعل الاجتماعي ودوره في نمو الشخصية

لا ينتهي أثر التفاعل مع الزملاء عند الأحكام التي يصدرونها والتقدير الذي منحونه بل ان عضوية الجماعات تؤثر تأثيرا أعمق في تشكيل الشخصية وفي تنمية الوعي الاجتماعي كما سنبين فيما يلي :

تأثير عضوية الجماعة على الفرد :

بانتقال طفل السادسة من الأسرة الى المدرسة ، ينضم الى مجموعة من الزملاء الذين يتوقعون منه أن يظهر كفاءته ، وأن يبرهن على أنه جدير بالاحترام . ويسمى الطفل مع أقرانه الى ابتكار ألعاب أكثر جاذبية ، ومغامرات أكثر إثارة من تلك التي اعتاد عليها في المنزل . كذلك هو يحاول أن يكتشف مكاتته بين زملائه ، والأدوار التي يتعين عليه أن يقوم بها في الجماعة . وبحلول مرحلة المراهقة (١٢ - ١٨ سنة) تصبح وظائف المجموعة التي ينتمى اليها المراهق أكثر تعقيدا وأعظم أهمية . اذ تقوم مجموعة الرفاق بمهمة التأييد والتعاضد التي كانت تنفرد بها الأسرة حتى الآن . وتحل عضوية الجماعة محل الارتباطات العائلية . وهذا هو سر اعتماد المراهق اعتمادا بالغا على تقدير أئداده واستحسانهم .

وسواء أكان الناشئ طفلا أو مراهقا ، فان حياته تغنى وتزدهر عندما يصبح عضوا في مجموعة الفصل أو الشلة أو فرقة الكشافة أو غيرها . فقوته تزداد : لأن المجموعة تستطيع انجاز أعمال كثيرة ومقاومة ضغوط عديدة يعجز هو وحده عن مواجهتها . وشجاعته تزداد : لأنه يشارك الجماعة في مسؤولياتها ويحظى بتعاضدها . تصبح أهدافه مجسمة وشعوره بقيمته الشخصية مدعما في اطار أهداف المجموعة وقيمتها . يتبادل المودة والمساندة مع أعضاء مجموعته عن طيب خاطر ، وفي أوقات الشدة يتلهف الى مساعدتهم وتقبل العون منهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان عضوية الجماعات تفرض على الناشئ قيودا معينة . لم يعد في امكانه أن ينطلق كما يروق له . فقد تضرر تلقائيته لأن المجموعة تتفق على عمل شيء آخر بطريقة أخرى . فالمجموعة تحدد له عددا من الأدوار الممكنة . وتساعد على اختيار تلك التي تلائمه أكثر من غيرها . كما تزوده بمقياس من المعايير الخلقية ، وتوضح له عن طريق استحسانها أو استنكارها أنواع السلوك التي تعتبرها الجماعة صوابا أو خطأ ، خيرا أو شرا ، مخلصا

أو خائفة . هذه المعايير وتلك الأدوار هي بمثابة نظام اجتماعي أو دستور يجد الناشئ مكانه فيه كعضو من أعضاء الجماعة . فإذا جلبت له العضوية ما يرتضيه من سعادة وازدهار ، اندمج في الجماعة وتقبل قيود دستورها عن طيب خاطر وتعلم أن يأخذ ويعطى ، واستيقظ فيه الوعي الاجتماعي .

ولا تقتصر أهمية الجماعات على أثرها التربوي الذي شرحناه آتقا ، بل إن مشاركة الجماعة جزء جوهري من عملية التكيف ، ووسيلة ضرورية لمواصلة التكيف واستمراره ، ذلك أنها تظل مصدرا دائما للصدقة والتقدير والمساندة . وكما أن الشخص الصحيح المعافي يحتاج الى تناول الطعام يوميا وبانتظام ، فكذلك الشخصية السوية تحتاج الى مواصلة الاشتراك في عضوية الجماعات لكي تظل مستمتعة بمزاياها .

سوء التكيف وعضوية الجماعات : يمكن التمييز بين نوعين من احتمالات سوء التكيف . أولا : عدم الاندماج في الجماعات ، أو اندماج ضعيف يحرم الشخص من مزاياها ومن ازدهار شخصيته . ثانيا : المبالغة في الاندماج في الجماعات بحيث يتلون الشخص بلون كل جماعة يشترك في عضويتها على حساب كيانه الشخصي ونعته الخاص .

عدم الاندماج في الجماعة : تتضافر قوى عديدة لمنع الناشئين من تكوين علاقات اجتماعية سليمة . فقد تعوقهم بعض الصفات المزاجية الأساسية في شخصيتهم : كأن يكون التلميذ خجولا مشدودا يرهب كدمات زملاء . أو كان يحول عنفه الطبيعي المتدفق دون تقبله بسهولة في المجموعة . وقد يكون افراط الوالدين في حمايته بالمنزل عائقا دون اندماجه في الجماعة المدرسية . فالناشئ الذي اعتاد الصياح أو العدوان لينال رغباته قد يتعذر عليه الأخذ والعطاء مع أعضاء المجموعة الذين سوف يبنذونه بدورهم . وربما نشأت الصعوبات من المجموعة ذاتها ، فيلقى التلميذ منها الأعراض لأنه من طبقة اجتماعية مختلفة أو من دين مختلف عن أغلبية الجماعة . وقد ترجع العراقيل الى ظروف خارجية كأن ينتقل التلميذ كثيرا من مدرسة الى أخرى مما يجعله يشعر أنه غريب على الجماعة ويصعب عليه أن يشق طريقه اليها .

كيف يمكن أن يواجه التلميذ هذه الصعوبات ؟ قد يحل المشكلة بإحدى الطرق الآتية :

(أ) أن يسعى الى تكوين جماعة صغيرة خاصة ، متجانسة من حيث اتجاهاتها واهتماماتها . وهذه محاولة سليمة .

(ب) أن يظل منفردا منعزلا ، يكتفى بالأعمال التي يستطيع أن يقوم بها وحده ، مجروما من أنس الزمالة وتعاونها ، يعرض في الأحلام افتقاره الى تقدير الذات وازدهارها ، مترددا في فهم دوره ومكاته في الهيئة الاجتماعية . مثل هذا الناشئ يتعذر عليه الاستقلال من سند الأسرة عند المراهقة ما دام لا يحظى بتعضيد جماعة الانداد . واذا لم يسعفه الحظ خلال هذه الفترة بتنمية مواهب خارقة تعيده الى الاتصال بالزملاء من جديد ، فسوف يتزايد شعوره بالعزلة والتفاهة .

(ج) اما الاتجاه الثالث فيصطبغ بالثورة والتسرد . بدلا من أن يعترف الناشئ بأن ميوله الاجتماعية محبطة، يتخذ من الجماعة موقف الازدراء، وينكر فكرة العضوية فيها ويصمها بالعباء ، ويضفي على نفسه أهمية الشخص الذي يستطيع تحقيق عظام الأمور اذا سلم من عرقلة الفوغاء . واذا كان من ذوي المواهب الخارقة فعلا ، فقد يستطيع أن يحقق شيئا . والا فصيره في أغلب الأحيان هو الاغراق في العزلة والتبرم المرير ،

الافراط في الاندماج : على الرغم من أن عضوية الجماعة تضي على الشخص منافع عديدة الا أن المغالاة في الاندماج قد تؤدي الى مشاكل في التكيف النفسى . فالشخص الأنيس الودود الذي يلتحق بشتى الجماعات دون تمييز، لا يلبث أن يجد نفسه في مأزق بسبب تناقض مبادئها وتصارع قيمها . عليه أن يلبى مطالب كل جماعة وهو معها . وهذا تكيف ، ولكنه تكيف على حساب تكامل شخصيته وتماسكها . وقد تتفاقم الأزمة عندما تصر كل جماعة على الافراد بولائه لها دون سواها ، فيشعر الشخص بالحيرة والضياع ، وينتابه التذمر والاستياء . ويستطيع أن يستعيد اطمئنانه وصحته النفسية بأن يعيد النظر في علاقاته الاجتماعية ، وأن يفحص بأمانة اتجاهاته ودوافعه وقدراته، وأن يستعرض مطالب الجماعات المتعددة،

وأن يزن القيم التي تستهدفها ، وأن يختار من بينها الجماعة التي تتلاءم أهدافها مع شخصيته الحقيقية . وبذلك يعود الى اكتشاف معالم نفسه التي كانت قد انطمت من جراء المغالاة في الاندماج الاجتماعي ، ويسمى الى استخدام شخصيته لتطوير الجماعة وتقديمها ، مع المحافظة على التوازن الدقيق بين تأثيره على الجماعة وتأثره بها . وهذه عملية دقيقة حاذقة يحتاج فيها الناشئون الى توجيه حصيف من المدرسين والمدرسات المؤهلين في الارشاد النفسى .

٤ - الضمير والمثل العليا واثرها في توجيه السلوك

من المعروف أن الدوافع التي تحفزنا لانجاز معظم أعمالنا هي تطلعا الى الحصول على المكافأة المباشرة أو المنفعة الشخصية أو التوافق مع أعضاء المجموعة التي تنتمي اليها . ولكن من الملاحظ أيضا ، أننا ، في كثير من المواقف ، نطرح هذه الاعتبارات جانبا في صالح مبادئ نعتقد أنها تخدم المصلحة الانسانية العامة . فبعض الأعمال الجليلة التي ينجزها الانسان ، يدفعه اليها ضميره ومثله العليا .

الا أن مفهوم الضمير قد تعرض في السنوات الأخيرة لهجوم شديد من قبل بعض العلماء . إذ اكتشفوا أن الضمير أحد أسباب الاضطرابات النفسية وانحرافات الشخصية . ومما يدعو الى الارتباك والبلبلة أن يكون الضمير أحد أسباب اضطرابات الشخصية ، وأن يكون في نفس الوقت الدافع الى الأعمال الانسانية النبيلة . ولا ضمير من أن نبدأ من هذا التناقض ما دام ينبها الى تحديد المعانى المختلفة التي تربطها بمفهوم الضمير . وأول ما ينبغى توضيحه أن للضمير والمثل العليا تاريخا في حياة الفرد . فالضمير ينمو ويتطور - شأنه في ذلك شأن أية ناحية من النواحي الشخصية . وقد ينحرف الضمير في نموه فيدخل في تكوين الاضطرابات النفسية ، دتجارة الحروب ، والاستبداد والقسوة المقنعة بقناع البر والتقوى . كما يمكن أن ينمو الضمير بطرق تجعل الأشخاص يكرسون مجهوداتهم لتقدم الحياة الانسانية . وتنشأ معظم المتاعب من أن الضمير ينبت في الطفولة ويبدأ تكوينه قبل أن يتمكن الطفل من فهم مغزاه .

مفهوم الذات العليا : يرى فرويد أن الطفل لا يولد بما يسمى الضمير . فالأطفال الصغار مخلوقات لا خلقية ، أى لا يملكون قوى نفسية تصدهم عن ارضاء نزعاتهم القطرية . وتقوم قوى خارجية - هي سلطة الوالدين - بدور الصد والمنع

في بداية حياة الطفل . وسيطر الوالدان على الطفل عن طريق بذل المحبة أو التهديد بالعقاب ، والعقاب عند الطفل هو حرمانه من المحبة والرعاية . هذه هي المرحلة الأولى في نمو الطفل الخلقى . ثم تأتي مرحلة ثانية حيث تبدأ الذات العليا تتكون ، وذلك بأن يتسلل الطفل القيود الخارجية ، ويستبطن قواعد التحريم والحظر التي يوجهها الوالدان إليه . وعلية الاستبطان هذه هي في الواقع عملية تعلم ، يتعلم الطفل أن يقمع السلوك الذي ارتبط بالعقاب ، وأن يقوى السلوك الذي ارتبط بالمكافأة . والذات العليا لا تشتمل على التحريمات والنواهي فحسب ، ولكنها تتضمن أيضا مثلا عينا مثل النظافة والاعتماد على النفس والكمال .. الخ . ثم يتقدم تكوينها فيستوعب الاتجاهات والميول التي يتخذها الطفل بالجملة من والديه خلال سنوات طفولته . وهذه الذات العليا تظل النسخة الطفولية للضير الذي يعتنقه الفرد فيما بعد كلما تقدم نضجه .

الا أن الذات العليا لا تكون دائما نسخة طبق الأصل لاتجاهات الوالدين . ففي بعض الظروف يختلط الأمر على الطفل بسبب طغيان وجداناته والحاحها فيستبطن صورة منوهة لدستور الوالدين ، كما أنه يسيء فهم المعايير الخلقية . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، كما يجدر بالمربين أن يتصروا معنا في الاسئلة الآتية : كيف يفهم الطفل القواعد الخلقية والمثل العليا ؟ كيف تدرك عقلية لم تتضج بعد مفهوم الأخلاق وتحيط به ؟ .

دراسات «بياجية» للحكم الخلقى عند الطفل : للاجابة على هذه الاسئلة تلجأ الى الأبحاث العلمية التي أجراها «بياجية» عن تطور الحكم الخلقى عند الأطفل من خمسة سنوات الى سن المراهقة . وجد بياجيه أن للقاعدة الخلقية وجودا مطلقا في نظر الطفل الصغير ، فقواعد الألعاب مثلا شيء موجود فعلا وكان موجودا منذ الأول ، ولا سبيل لتغييره حتى ولو اتفق جميع الأفراد على ذلك . كذلك الحال بالنسبة للمعصية أو الذنب . فالمعصية في نظر الأطفال الصغار ثابتة مطلقة لا تتغير ، وتتفاوت شدتها بنسبة الضرر الذي أحدثته فعلا ، بغض النظر عما اذا كان الشخص قد أذنب عن قصد أو عن غير قصد . فالقصد لا يلعب دورا في حكم الطفل الخلقى . ويلقب بياجيه هذه المرحلة من النمو الخلقى بالواقعية الخلقية Moral-realism .

ثم وجد بياجيه أن الحكم الخلقى يتطور بتقدم الأطفال في السن ، الى وجهة النظر التي أسماها النسبية الخلقية Moral relativism حيث يدركون أن القواعد

مسألة اتفاق متبادل للمنفعة المتبادلة ، وأنه يمكن تعديلها بالاتفاق الجماعى . كما أنهم يفهمون أن القصد الذى يكمن وراء المعصية يجب أخذه بعين الاعتبار عند الحكم على خطورة الذنب المقترف .

على ضوء هذه المعلومات يتضح لنا أن الذات العليا التى تكونت خلال الطفولة الأولى سوف تتضمن النظرة الخلقية الواقعية . أى سوف تكون لا منطقية ومطلقة فى أحكامها ، وغالبا ما تظل الضمير اللاشعورى المترسب من الطفولة . وكأى وظيفة طفلية أخرى ، ينبغى أن تتطور الذات العليا وأن تسير النضج الذى يطرأ على باقى نواحي الشخصية . الا أنه فى كثير من الحالات لا يتحقق هذا التطور ، وتكون النتيجة أن يستمر مفعول الذات العليا بأحكامها المطلقة غير المعقولة .

نمو البصيرة الخلقية : مما يساعد الطفل على التخلص عن الواقعية الخلقية ، نحو قدرته على رؤية الأمور من وجهة نظر شخص آخر . أى قدرته على أن يدرك أن الأحداث تؤثر تأثيرا مختلفا على الأشخاص المختلفين . ان ما يسعده هو وصديقه مثلا قد يسيء طفلا ثالثا . وهذا يتوقف من جهة على النضوج العقلى ، ومن جهة أخرى على معاناة الطفل لنفس الخبرات التى نطلب اليه أن يقدرها بالنسبة للآخرين . ومن أهم المواقف التى تساعد على تقدير القواعد الخلقية ، تلك المواقف التى ينتهك فيها الآخرون القواعد فيصاب الطفل بضرر أو اجحاف . أن بخطيء الغير فى حقنا من الخبرات الحاسمة التى تبصرنا بطبيعة الخطأ .

يتبعى إذن أن يميز المربون بين الذات العليا والضمير الناضج . فالذات العليا ضمير طفلى مطلق لا منطقي ، يستمده الطفل مباشرة من قواعد والديه واتجاهاتهم ، دون تأمل أو تبصر ومع بعض التثوية . أما الضمير الناضج فيبدأ تكوينه عندما تنشط المشاركة الوجدانية والانتبصار بحيث يدرك الطفل أن القيود والمثل العليا تطوى على غاية أبعد وأسنى من مجرد ارضاء الوالدين . ويستمر الضمير فى التطور والنضوج عندما ما يتعلم الناشئ أن يميز آفكار أعماله على الأشخاص الذين يتأثرون بها ، ويحكم عليها تبعا لذلك ، ويتحرز من مجرد الطاعة العمياء للقاعدة . ويصف العلماء هذه العملية بأنها تكامل الذات العليا والذات المدركة المفكرة ، وكلما تحقق هذا التكامل ضعف مفعول الذات العليا وتحكمها فى الشخصية .

تثبيت الذات العليا : أما إذا لم يتم هذا التكامل ، فإن الضمير الطفلى - أى الذات العليا يتثبت ، ويظل متسلطا على الشخصية ، ويسبب لها الاضطراب . والسبب فى تثبيت الضمير الطفلى يرجع الى تزايد قلق الطفل من فقدان حب والديه . فلا يجرؤ على مناقشة معايير الوالدين ، ويتولاه الفزع من الاقدام على أى سلوك يحتمل أن يفقد المحبة والرعاية . ولا شك فى أن هذا الرعب يعوق ازدهار المشاركة الوجدانية التى تجعله يحس باحساس الآخرين ويتفعل - لانفعالاتهم . كما يعوق ازدهار الاستبصار الذى يدفعه الى استخدام خبراته الشخصية وتفكيره لكى يفهم وجهة نظر الآخرين . وهكذا يتثبت الطفل المقلق بالمعايير الطفلية الغاشمة لأن التخللى عنها يعنى المجازفة بمحبة الوالدين ومساندتها .

ومما يشجع الايغال فى تثبيت الضمير الطفلى تردد المجتمع بوجه عام ، والمجتمع المدرسى بوجه خاص ، فى السماح للتلاميذ والتلميذات بأن يفكروا تفكيراً منطقياً مستقلاً ولا سيما فى المسائل الخلقية . فتصور الفوضى الخلقية المزعومة التى قد تنجم من الحرية فى التفكير يجعل المربين يترددون فى تشجيع النضج الخلقى . قد يكون حفظ التلاميذ على نمط واحد أسهل ولكنه لا يساعد على تكوين شخصيات ناضجة سوية .

تطبيق مبادئ الصحة النفسية فى المدرسة

أوضحنا فى مستهل هذا البحث مبادئ الصحة النفسية بوجه عام ، ثم تناولنا بشئ من التفصيل أهم العوامل التى تؤثر على الصحة النفسية لشخصية انطلق ، ونختتم البحث باستعراض كيفية الاستفادة من هذه المعلومات فى المدرسة .

تستخدم مبادئ الصحة النفسية أصلاً فى ميدان العلاج النفسى . الا أن فى السنوات الأخيرة أدرك المهتمون بالعلاقات الانسانية أنه يمكن أيضاً الانتفاع بمبادئ الصحة النفسية للوقاية والارشاد فى ميادين التربية والزواج والصناعة والاجرام وغيرها ، والذى يعنىنا هنا هو كيفية تطبيق مبادئ الصحة النفسية فى ميدان التربية عامة والتربية المدرسية خاصة .

كانت الفكرة السائدة أن مهمة المدرسة الوحيدة هى تدريب عقل الطفل ، أى تنمية تفكيره ، وتعليمه القراءة والكتابة والحساب ، وتلقيه المعارف . أما المفهوم الحديث لأهداف التربية ، فقد انبثق من مبادئ الصحة النفسية، ويتلخص

في أن مهمة المدرسة هي تنمية شخصية التلميذ من جميع نواحيها ، لا تقتصر على تدريب تفكيره ولكنها تعينه أيضا على ارضاء حاجاته الوجدانية بأساليب أكثر نضجا ، وتعدده بوصفه كائن اجتماعي على الاضطلاع بدوره الكامل كمواطن . فهدف التربية من الناحية الايجابية هو تكوين شخصية سوية ، ومن الناحية السلبية هو وقاية الناشئين من اضطرابات الشخصية .

هذا عن الأهداف العامة للتربية . واتفق الآن بعض نواحي التربية المدرسية وأبين الأساليب العملية التي يمكن تطبيقها تحقيقا لهذه الأهداف .

التوجيه الاجتماعي في الفصل :

ينقسم الفصل عادة الى مناطق نفوذ ، ففي النواحي العلمية يدير المدرس أو المدرسة دفة الأمور ، أما في المسائل الاجتماعية فالتلاميذ هم غالبا الذين يحددون الاتجاهات . هذا التقسيم مؤسف ، لأنه يحرم الأطفال والمراهقين من حقهم في حكمة البالغين وخبرتهم وارشادهم في الناحية الاجتماعية .

إن التدريب الاجتماعي الذي يتبادله التلاميذ ، يميل الى تأكيد انحرافات شخصياتهم أكثر مما يعمل على تقويمها ، فالطفل المنزوي تتجاهله المجموعة فيغرق في انزوائه . والطفل العدواني يواجه مقاومة تدعم ميله الى الاعتداء . ويندر أن يستحث الزملاء كلا من القائد والتابع على تبادل ادوارهما ، وبذلك يدعم التدريب سيطرة القائد وخضوع التابع . وقليل ما يكشف الطفل المنبوذ السبب في نبذه بحيث يكيف سلوكه للمجموعة . هذه هي المواقف التي يجد فيها المدرسون مجالا لتطبيق بعض مبادئ الصحة النفسية . فهل ينتهز المدرسون في مدارسنا الفرص لممارسة التوجيه السليم ؟

لعل السبب في انصراف المدرسين والمدرسات عن هذا المجال من التوجيه ، هو افتقارهم الى الوسائل العملية الملائمة للتعرف على العلاقات الاجتماعية في فصولهم ، ولاكتشاف التلاميذ المنعزلين أو المنبوذين . فقد أسفرت الابحاث العلمية في هذا الموضوع ، أن الآراء الذاتية للمدرسين لا تتفق الا بدرجة ضعيفة مع تقديرات التلاميذ أنفسهم لعلاقاتهم الاجتماعية . وأقدم فيما يلي بعض الاقتراحات العملية ، يستطيع بها المدرسون والمدرسات أن يدرسوا التركيب الاجتماعي

للفصل الواحد ، وان يفهوا نظرة التلاميذ بعضهم الى البعض كما يراها التلاميذ أنفسهم .

الوسيلة الأولى مستقاة من مورينو Moreno . الغرض منها تعيين الصداقات الوثيقة الموجودة في المجموعة ، وتخطيط النتائج تخطيطا بيانيا يوضح العلاقات بين أعضاء المجموعة . ويمكن الحصول على البيانات بطرق مختلفة فمثلا يمكن أن نطلب من الأطفال أن يكتبوا قائمة لأحب أصدقائهم في الفصل . ويستحسن تحديد العدد المقدم من كل طفل الى ثلاثة أو أربعة أسماء على الأكثر . ويمكن اتباع طريقة أخرى ، وهي أن نطلب من التلاميذ أن يكتبوا اسم الزميل الذي يفضلون الاستذكار معه ، أو الذهاب معه الى السينما ، أو دعوته لتناول الطعام معه في المنزل .

ان تخطيط النتائج سوف يبرز أخطا متعددة من التنظيم الاجتماعي فقد يظهر أن طفلا معيننا محبوبا هو النواة التي يتجمع حولها الفصل ، وقد تظهر في الفصل تجمعات داخلية متعددة يختلف عدد الأفراد في كل منها ، وقد يوجد اتصال بين هذه المجموعات المتعددة ، وقد لا يظهر أى تنظيم محدد . وفي أغلب الفصول سوف يلاحظ المدرس ان بعض التلاميذ ذكروا أسماء الآخرين كأصدقاء ولكن لم يخرهم أحد كأصدقاء . هؤلاء التلاميذ المنعزلون هم الذين يحتاجون الى دراسة واهتمام من جانب المدرس . ففي بعض الحالات يؤدي الاستماع والملاحظة بالاضافة الى بعض الأسئلة الرصينة الى الكشف عن سبب العزلة ويكون الطفل المنبوذ أحيانا من مستوى نضوج مختلف عن بقية الفصل ، أو تكون ملابسه مختلفة ، أو يكون من طبقة اجتماعية مختلفة . وأحيانا أخرى قد يستغل قوته لايداء الضعفاء ، أو يستجدي الانتباه ، أو يببالغ في الاعجاب بنفسه ، أو يفتقر الى الكياسة واللباقة .. الخ . الخ . كل هذه وكثير غيرها قد تكون مصدرا من مصادر عرقلة الاندماج الاجتماعي ، ويمكن تلخيصها في عبارة ، أن التلميذ مختلف بشكل ملحوظ .

من وجهة نظر المدرس أو المدرسة قد يكون اختلاف التلميذ المنعزل في صالح التلميذ . الا أن هذا يدل دلالة واضحة على عجز البالغين عن فهم الصفات التي يعجب بها الناشئون في كل مرحلة من مراحل نموهم . ويستطيع المدرسون والمدرسات أن يحصلوا على معلومات عن التقاليد السائدة في فصولهم عن طريق

اختبار « التخمين » . فيطلب من التلاميذ أن يخمنوا من زملائهم تنطبق عليه بعض الأوصاف ، مثل : من يحب القتال ويتعارك كثيرا ؟ من يرتدى دائما ملابس نظيفة منسقة ؟ وغيرها . ثم يعطى لهم الاختبار الذى سبق ذكره آنفا عن أحب زملاء اليهم . وبالمقارنة بين الاجابات فى الاختبارين ، يستطيع المدرس أن يتعرف على السمات التى تجعل التلميذ محبوبا من جماعته .

بعد التعرف على أسباب عزلة التلميذ ينبغى على المدرس أو المدرسة أن يفحص امكانية تعديلها أو تخفيفها . اذا وجد ان الاختلافات بين التلميذ وزملائه اختلافات حقيقية يتعذر ازالتها ، فيمكن تضيق الفجوات بينهم أو تدريبهم على التسامح . أما اذا كان الاختلاف مصطنعا أكثر منه حقيقيا ، فيمكن التخفيف منه باتاحة فرص أكثر للتعارف بين التلاميذ . فى بعض الحالات يمكن تعويض النقص فى طفل خجول مثلا بتعليمه مهارة معينة لا يجيدها الآخرون ، فيدعوهم ذلك الى التعرف عليه والاعجاب به بدلا من تجاهله . اذا كان الاختلاف فى مستوى النضوج ، فقد يحتاج الأمر الى نقل التلميذ الى مجموعة من الزملاء المقاربين له فى النمو . كذلك يمكن ابتكار وسائل عديدة لتهيئة الفرص أمام التلميذ المنعزل لكي يحصل على اتباه زملائه كأن يعاد نظام الجلوس فى الفصل ، ونظام توزيع الخدمات الخاصة بالصف ، وتنظيم لجانه المختلفة الخ . وعلى المدرس والمدرسة بوجه عام أن يستعمل الحكمة والكياسة لأن الصداقة لا يمكن غرسها بالقوة ولا بالأمر . أما اذا اشتد عدم تكيف التلميذ الاجتماعى فيستحسن إحالته الى العيادة النفسية التى تسدى خدماتها للمدرسة .

التوجيه العلمى فى الفصل :

التوجيه التربوى مجال واسع مترامى لا يمكن استيفاءه فى بضعة صفحات . ونقتصر على توضيح المعالم الرئيسية فى النقاط التالية :

١ - عملية توجيه الناشئين عملية قديمة تمتد جذورها الى الأسرة والقبيلة والمدرسة . وكل تنشئة للأطفال وكل تربية سواء آكانت حكيمة أو حمقاء تمثل محاولات البالغين لمساعدة الأطفال فى نموهم يصبحوا بالغين أصحاء ، متكيفين مع النظام الاجتماعى ، قادرين على أن يحتلوا مكانة شخصية ترضيهم . . .

٢ - ان أسمى وظيفة لكل من المنزل والمدرسة أن يزودا الطفل بتوجيه مستير في جميع مراحل نموه ومن مختلف نواحي النمو .

٣ - الوظيفة الأولى للمدرس والمدرسة هي الارشاد الحكيم لتلاميذه ، والصدقة المنبهة ، أكثر مما هي تلقين المعرفة والتدريب . وتتلخص وظيفة المدرس في تهيئة جو الفصل ومواقف التعلم بحيث تضمن النمو الصحيح للطفل ، وتوقظ مباداته وتلقائيته ، وتعزى قدرته على الابتكار ، وتنسى استعداداته الكامنة ، وتمنع نمو اضطرابات الشخصية ، وتتغلب على العوائق الدراسية والاجتماعية .

٤ - لا يستطيع المدرس أو المدرسة أن يؤدي وظيفته بكفاية دون أن يفهم شخصية كل تلميذ ككائن حي متكامل . المدرس الموجه يتعامل مع كائن حي مركب فكيف يستطيع توجيهه دون أن يعرف قدرته العقلية العامة ، وقدراته الخاصة ، وتفاصيل الخاصة وميوله واتجاهاته ، ومميزاته الجسمية والمزاجية ، وصراعاته الوجدانية ، والأساليب التي يتبعها لمواجهة مشاكله ؟ ان التوجيه الذي لا يبنى على تشخيص شامل أسوأ من عدم التوجيه ، بل أنه ضرب من الدجل . فكيف اذن يحصل المدرس على مثل هذا التشخيص العلمي الشامل للطفل ؟ يمكن معاونة المدرس بعدة وسائل متكاملة أذكر منها أولا : اعداد المدرس نفسه اعدادا فنيا لعملية التوجيه ، وسوف أتعرض لهذه النقطة في الفقرة التالية . ثانيا : تعيين اخصائي نفسى أكلينيكى مدرب على شتى أنواع القياس النفسى في كل مدرسة ، بحيث يأخذ على عاتقه قياس النواحي التي يمكن قياسها من شخصية تلاميذ المدرسة ، وتخصيص سجلات فردية لكل تلميذ ، يستطيع المدرس الرجوع اليها لاستكمال معرفته بتلاميذه . ثالثا : يمكن انشاء عيادة نفسية لعدد من المدارس المتجاورة بحيث تستفيد كل مدرسة من خدمات العيادة سواء منها التشخيصية أو العلاجية .

٥ - ان ارشاد الأطفال والشباب عملية أصعب من مجرد التدريس . ولا يمكن أن توقع من المعلمين والمعلمات أن يعملوا على مستوى عال في مجال التوجيه التربوى ، الا اذا أعدوا لذلك اعدادا فنيا أساسيا - سواء في ذلك من يوجهون الناشئين من ٦ - ١٣ سنة ، أو من ١٣ - ١٨ سنة . ونلاحظ هنا بأسف عميق ان مدرسى الأطفال من ٦ - ١١ سنة أقل المدرسين اعدادا لمهتهم الشاقة الأساسية .

وينبغي أن يتضمن هذا الاعداد الفنى أولا : دراسة نظرية لعلم النفس العام ، وعلم النفس التربوى وعلم النمو النفسى ، وقياس الفروق الفردية المتعددة ، وهذه تدرس حاليا فى كليات اعداد المعلمين للمرحلتين الاعدادية والثانوية ويجب أن تدرس أيضا فى معاهد اعداد المدرسين للمرحلة الابتدائية التى لا تقل أهمية عن المراحل الأخرى بل تعتبر المرحلة الأساسية . ثانيا : تدريبا عمليا على القياس النفسى ، والقدريس العلاجى التشخيصى ، والتربية الخاصة لذوى العاهات ، ومشاكل التوجيه التربوى والمهنى ، وتحليل الأعمال والمهن والحرف المختلفة ، وتقدير حاجة المجتمع إليها ، ووسائل التوظيف والمتابعة . ثالثا : تدريب المدرسين على تشخيص الحالات العادية ، وتبصيرهم بالحالات المعقدة التى يجب أن تحال الى الاخصائين النفسانيين فى العيادات النفسية المختصة .

ان التوجيه التربوى الصحيح يحتاج الى بصيرة والى مهارات فنية خاصة لا يمكن أن يكتسبها المدرس الا عن طريق التأهيل والاعداد النظرى والعملى والآن أصبح التوجيه عملية تهريج .

٦ - اذا كان التوجيه التربوى هاما بالنسبة لنمو الأطفال العاديين وتكيفهم ، فانه لا يقل أهمية بالنسبة للأطفال ذوى العوائق المتنوعة ، وبالنسبة للأطفال الموهوبين .

توجيه الأطفال ذوى العوائق :

ان مشاكل توجيه التلاميذ الذين يعرقل نموهم الطبيعى عائق ما ، سوف يختلف باختلاف طبيعة العائق الذى يقيد تكيفهم . من هذه العوائق : الضعف العقلى ، والعمى ، والصمم والشلل وغيرها . ولكن الأهداف الرئيسية لتربية معظم المعوقين قد تكون متاشبهة وهى تربيتهم بحيث :

(أ) يصبحون قادرين على اعالة أنفسهم بالقيام بعمل مناسب .

(ب) يكونون مندمجين مع مجتمهم ومتعاونين ونافعين .

(ج) يصبحون متحررين من العادات المقلقة وانحرافات الشخصية التى تكون قد تولدت اما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من نقائصهم ، والتى قد تكون حاجزا دون تكيفهم الاقتصادى والاجتماعى .

(د) يكونون شخصيات راضية سوية متكاملة .

(هـ) يقدرون التزاماتهم تجاه المجتمع الذى وفر لهم تربية خاصة .

ماهى الاجراءات التى ينبغى اتباعها لتحقيق هذه الأهداف العريضة ؟ سوف تؤكد هنا ثلاث توصيات :

الأولى هى كما سبق أن ذكرنا التشخيص العلمى الشامل لكل نوع من أنواع العوائق بحيث يستطيع المدرس فهم احتياجات الطفل المعوق ودوافعه ، وقدرته العقلية العامة ، واستعداداته المهنية ، وطبيعة فقائمه ، والوسائل التى يستخدمها لحل المشاكل التى يخلقها له نقصه .

التوصية الثانية هى أن تزود ذوى العوائق فى مرحلة مبكرة بالتوجيه التربوى الحاذق والتعليم المستمر . فنضع لهم برامج خاصة غنية بالقنون الصناعية، والتدريب المهنى ، والتعليم الثقافى الملائم لاحتياجات كل مجموعة ، والاهتمام بتكيفهم الاجتماعى وامدادهم بالفرص الترفيهية .

اما التوصية الثالثة فهى أن تنظم للمعوقين خطة لتوظيفهم ومتابعتهم فى عملهم ، لكى نلاحظ من الواقع مقدار نجاح توجيهنا لهم .

توجيه الموهوبين :

ليس التعرف على التلاميذ الموهوبين فى سهولة التعرف على التلاميذ المتأخرين . فالمتفوقون يتقدمون بطريقة منتظمة مرضية ولا يعرقلون سير الروتين المدرسى . ويرتب على ذلك أننا لا نهتم بهم بينما يجذب انتباهنا التلاميذ المختلفون . الا أن اختبارات الذكاء قد بينت أن هناك من الأفراد من هم فوق المتوسط بقدر ما هنالك من أفراد هم دون المتوسط وتتضمن مجموعة من هم فوق المتوسط درجات متفاوتة متصلة من الذكاء . ولا تطلق عبارة « متفوق » الا على العشرين أو العشرة فى المائة العليا من التوزيع . وهم الذين يحصلون على نسبة ذكاء أعلى من ١٣٠

وينبغى تحديد درجة التفوق باختبارات الذكاء المقننة . الا أن هناك أدلة أخرى يستطيع المدرس والمدرسة استخدامها محكما للتفوق فى تلاميذه . منها أن الموهوبين يشغفون باكتساب المعرفة عن طريق الأسئلة والقراءة وأنواع كثيرة من الاستقصاء والمشاريع . كان الرأى السائد ان المتفوقين أضعف جسما وأقل

اقبالا على النشاط الاجتماعى ، الا أن الدراسات العلمية المستفيضة ، كما سبق أن ذكرت ، برهنت على خطأ هذا الرأى ، وبينت ان الموهوبين ييزون إقرانهم لا فى الصحة والنشاط فحسب ، بل فى جميع سمات الشخصية الأخرى ، وفى المميزات التى تؤدى الى النجاح فى العمل المدرسى وفى تكوين المواطن الصالح . كذلك بينت هذه الأبحاث أنه لا توجد فروق تذكر بين الجنسين فى هذه الناحية .

لم يستيقظ الوعى بعد فى بلادنا الى ضرورة بذل توجيه خاص مبكر للتلاميذ الموهوبين . حقا ان الدولة أخذت تشجعهم بالهبات المالية ، ولكن التشجيع المالى شىء ، والتوجيه التربوى المبكر شىء آخر . ان البنات والبنين الموهوبين هم أمل المستقبل — هم ثروة قومية يتوقف عليها رقى الأمة وتقدمها . لذا يجب التبرير فى العناية بهم ، وتوجيههم توجيها تربويا خاصا ، بحيث تتاح لهم الفرص للإنتاج بما يتلاءم مع طاقاتهم الغنية . والقصور فى ذلك يعنى خسارة اجتماعية واقتصادية فادحة . وتوجد عدة طرق لمواجهة مسألة التلاميذ الموهوبين أذكر منها ما يلى :

(أ) افساح السبيل أمام الطفل الموهوب لكى ينتقل بسرعة من صف دراسى الى آخر دون التقييد بالسن . ومن مزايا هذا الاجراء أن يدرس التلميذ مع مجموعة من نفس مستواه العقلى ، فيتوفر له التنبيه العقلى الملائم . ومن نقائصه أن ينتقل التلميذ الصغير الموهوب الى مجموعة تكبره سنا وتختلف عنه فى النمو الجسمى والميول الاجتماعية ، كما يحدث لو كان هو غلاما فى العاشرة وفصله فى بداية مرحلة المراهقة ؟ وقد يؤدى هذا الموقف الى انسحابه من الحياة الاجتماعية وعرقلة تكيفه الوجدانى .

(ب) الخطة الثانية التى ابتكرت بعد استخدام اختبارات الذكاء هى انشاء فصول خاصة للتلاميذ الموهوبين تكون متجانسة من حيث المستوى العقلى والنضوج العام . وتمتاز هذه الخطة بإمكان تقديم مناهج غنية واستخدام طرق خاصة تتلاءم مع ميول المجموعة واستعداداتها . كما أن المنافسة بينهم تكون مناسبة . ومن أوجه النقد الموجهة الى هذا الاجراء ان باقى المدرسين والتلاميذ فى المدرسة يفتقدون الحماس والتشيط الذى يضيفه الموهوبون على الفصل .

(ج) الطريقة الثالثة هي استبقاء الموهوبين في الفصول المناسبة لعمرهم الزمنى مع تخطيط برامج خاصة متنوعة لهم بالإضافة الى البرامج العادية . وتتضمن هذه البرامج الاضافية رحلات تربوية و نوادى علمية وحلقات مناقشة الخ ، تنفذ في أوقات العمل المدرسى ، أو تحدد لها مواعيد أخرى تلائم ظروف التلاميذ الموهوبين والمدرسة .

ولقد وجد الذين مارسوا هذه الخطة انها خطة مرضية وعملية . ويمكن تنظيمها على أساس فردى أو بتكوين مجموعات من الموهوبين من الفصول المختلفة . ولما كان معظم التلاميذ الموهوبين يحتاجون الى وقت أقل لاستذكار دروس فرقتهم ، يمكن أن يستخدموا الوقت المتوفر لتنفيذ مشروعات شخصية مثل دراسة مرحلة من مراحل الحضارة الانسانية ، أو سير العظماء من مختلف ميادين الابتكار ، أو لغة أجنبية حديثة ، أو تنمية موهبة خاصة علمية كانت أو فنية .

وأخيرا اذا تذكرنا أن أطفالنا الموهوبين هم أنفس مواردنا القومية ، وأنهم قادة المستقبل فى العلوم والفنون والآداب والاختراع ، لما ضننا عليهم بالتوجيه التربوى الذى يوفر لهم الصحة النفسية السوية . فبجانب تزويدهم بجميع مواردنا العقلية ، وتشجيعهم على اكتساب جميع أنواع المهارات الفنية والعقلية على حد سواء، ينبغى أن نغرس فيهم ان الابتكار والانتاج الحقيقى أهم من الشهرة، وأن نتجنب استغلالهم أو تشجيع الزهو والمباهاة فيهم ، وأن نتفادى تعريضهم للمواقف التنافسية ولا سيما تلك التى تخلق هوة بينهم وبين زملائهم من نفس السن ، وأن نشجع جهوداتهم التلقائية للخدمة الاجتماعية وأن نحترمهم وثق بأن الطفل الموهوب المتمتع بالصحة النفسية السوية سوف يكون البالغ الموهوب الذى يعتمد المستقبل على حكمته .

شخصية المدرس :

المعلم والمعلمة هما العمود الفقرى للمدرسة . واذا كان الهدف الأساسى من التربية المدرسية هو تكوين شخصيات سوية ، فلا مناص من أن تتطلب ان تكون شخصيات المدرسين والمدرسات شخصيات صحيحة . فالمدرس الذى تكون صحته النفسية مضطربة يضر تلاميذه ضررا بالغا . ذلك انه فى أثناء تعامله مع التلاميذ ينقل اليهم دون وعى منه قلقه النفسى وتوتره . ومن مظاهر عدم

التكيف الانفعالي في المدرس : تقلب مزاجه ، وعدم تحكمه في غضبه ، والتحيز لبعض التلاميذ ، وعدم التسامح ، والسخرية ، والتعبير عن وجهة نظر معوجه في الحياة بملاحظته العامة وعباراته .

ومن الانصاف أن تتساءل عن الأسباب التي تؤدي الى الاضطراب الوجداني في المدرسين والمدرسات . ويجدر بنا أن يكون بحثنا عن هذه الأسباب مبنيا على استقصاء موضوعي لأحوالهم في بلادنا . ما الذي يحبطهم ويقلقهم ؟ أهى مرتباتهم الزهيدة غير المناسبة ؟ أم هو عدم توفيقهم في الزواج ؟ أهو تدخل الادارة في حياتهم الخاصة والضغط عليهم ؟ أم شعورهم بأن مكاتبتهم في الهيئة الاجتماعية لا تتناسب مع أهمية مهنتهم ؟ أن الشخص المحبط المخيب الآمال غالبا ما ينضح مرارة ويشع نقمة على المحيطين به سواء أكان والدا أو مدرسا أو رئيسا . ويتفاقم الأمر اذا كان المحيطون به أصغر سنا وأقل خبرة وأضعف قوة . والضحية في أغلب الأحوال تكون الأطفال .

الا أنه بجانب الصحة النفسية السوية ينبغي أن يتوفر في المعلمين والمعلمات بعض الخواص اذا أرادوا أن ينجحوا في توجيه الناشئين . ومن هذه الخواص أن يكون المدرس محبا للأطفال والشباب وأن يهتم بشئونهم الخاصة كما يهتم بدرجاتهم ، وأن يتفهم مشاكلهم ، ويحترم الفروق الفردية بينهم ، وأن يساندهم في أزماتهم ويشاركهم أفراحهم في سر . فالمدرس الصديق أكبر عون لحسن تكيف الناشئين في الحياة المدرسية . وأعود فأتساءل : هل من الانصاف أن نطلب من المدرس أن يكون صديقا مستتيرا لفصل مزدحم بخمسين شخصية متطلعة الى توجيهه ؟ .

المنهج المدرسي :

يمكن أن يكون المنهج مجالا حيويا من مجالات الصحة النفسية لو كانت مواده تجسما لقيم الصحة النفسية ومبادئها . فاذا كانت الصحة النفسية السوية هي التكيف السليم للحياة عن طريق ارضاء احتياجات الفرد في اطار النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ينبغي على المنهج الذي يساعد الناشئين على هذا التكيف أن يتضمن :

(أ) الاعداد للزواج وحياة الأسرة .

(ب) التدريب على حقوق المواطن ومسئوليته في مجتمع ديمقراطي اشتراكي .

- (ج) اعداد المستهلك على استعمال دخله للحصول على لوازمه بأحسن الوسائل بحيث لا يتعرض للاستغلال أو التضليل أو التبذير .
- (د) تنمية عادات مجدية في التعلم ، والتدرب على التعاون مع الآخرين .
- (هـ) الحصول على خبرات في استخدام أوقات الفراغ بطريقة خلاقة ابتكارية.

تنظيم برامج التوجيه وتنميتها في المدرسة :

في ضوء المبادئ التي أجعلناها في الصفحات السابقة يمكن مناقشة هـ إذا الموضوع في الحلقة . وأقتصر هنا على اقتراح نقط تتفتح في المناقشة .

لا يمكن تنظيم برنامج للتوجيه في مدرسة ما الا بعرفة هيئة التدريس واشتراكها وتعاونها . ينبغي ألا يكون البرنامج شيئاً مفروضاً على المدرسة بمرسوم ادارى بل يجب أن ينبع من احتياجات المدرسة ومواردها، كما أنه سوف يختلف في المدرسة الابتدائية عنه في المدرسة الثانوية . وأهم ضمان لنجاح البرنامج هو أن يفهم المدرسون المبادئ الأساسية للتوجيه وأن يتقبلوا فلسفته وأن ينتفعوا بجميع الوسائل والخدمات التي ابتكرت في هذا الميدان .

ويمكن أن يتضمن تنظيم برنامج التوجيه الأمور الآتية :

- ١ - اكتشاف الحاجات الحقيقية للتلاميذ ومشاكلهم . ونوع الوسائل المستخدمة لتحقيق ذلك .
- ٢ - استخدام المعلومات المتجمعة عن التلاميذ لملاءمة التعليم للحاجات الفردية .
- ٣ - الوسائل التي تسمى تفهم المدرسين لسلوك تلاميذهم وتميق هذا التفهم .
- ٤ - انشاء بعض الخدمات التوجيهية الخاصة مثل :
 - (أ) تنظيم سجل خاص بكل تلميذ تتجمع فيه جميع المعلومات عن شخصيته .
 - (ب) تنظيم الارشاد النفسى الفردى لمن يحتاج اليه من التلاميذ .
 - (ج) تنظيم التوجيه المهنى والتوظيف والمتابعة .
 - (د) تنظيم العمل الجماعى والافادة من الخبرة الجماعية .
 - (هـ) تنظيم الخدمات الصحية العضوية .

الراجع

REFERENCES

1. Cowell, C. C. A Suggested Index of Social Adjustment in High School. Educational Research Bulletin, XVII, Jan. 1938, pp. 10 — 19.
2. Dollard, J., Doob, L. W., Miller, N. E., Mowrer, O. H., and Sears, R. R., Frustration and Aggression. New Haren, Yale University Press, 1939.
3. Freud, S. New Introductory Lectures in Psychoanalysis. New York. W. W. Norton Co. 1933.
4. Hollingworth, L. S. Children Above 180 I. Q. Yonkers, world Book Co., 1942.
5. Mackinnon, D. W. The Structure of Personality. Chap. 1. in Hunt, J. Mc. V. (ed.) Personality and the Behavior Disorders. Vol. I.
6. Moreno, J. L. who Shall Survive ? Nervous and Mental Disease Publishing Co., 1934.
7. Piaget, J., The Maral Judgement of the child, New York, Harcourt, Brace and Co., 1932.
8. Symonds, P. M. The Dynamics of Human Adjustment. New York, D. Appleton Century Co., 1946.
9. Terman, L. M. et al. Genetic Studies of Genius. Vol. I. Mental & Physical Traits of a Thousand Gifted children. Stand ford University Press, 1925.